أبو راس الناصري والآخر[1]

نظرة الفقيه إلى نابليون من خلال كتاباته

بقلم أ/ ودان بوغوفالة

يمرر العلماء والمؤرخون المغاربة من خلال كتاباتهم عدة صور لنابليون بونابرت، تتمايز فيما بينها، وتتحدد وترتبط بالمكان وطبيعة أهله في المشهد الذي تقدمه. فبونابرت عند أغلبية العلماء والمؤرخين هو البطل الفاتح المنتصر في أوربا، وهو العاقل الحكيم في فرنسا و المنقذ لها، وهو أيضا لدى أكثريتهم النصراني الكافر في المشرق العربي. وفي كل صورة من هذه الصور المركبة، يتقدم نابليون في الغالب وهو مقطوع الصلة بالثورة الفرنسية وتفاعلاتها الداخلية وامتداداتها الخارجية، تبدأ من ظهوره حلقة من تاريخ فرنسا وتنتهي هذه الحلقة بإبعاده عن الحكم ونفيه سنة 1815م.

وانطلاقا من هذا الإطار العام الذي تحددت فيه الكتابات التاريخية عن مشروع بونابرت، تتبع الرحالة المغاربة حملة نابليون من فرنسا إلى مصر، ورفضوها بلغة دينية قوية باستثناء ما كتبه حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومحمد بن عبد الجليل الطرابلسي اللذان لهما رأي آخر. واختلف السياق الذي ورد فيه الحديث عن هذه الحملة من مصدر إلى آخر، سواء بين الكتاب

المعاصرين لهذه الأحداث، أو بين أولئك الذين كتبوا عنها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وعندهم جميعا لم يكن موضوع الحملة موضوعا مستقلا مقصودا بذاته، حتى عند المعاصرين منهم للحملة الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، مثلما هو الحال عند بعض المؤرخين المشارقة، كعبد الرحمن الجبرتي الذي طلب منه الوزير الأعظم يوسف باشا تأريخ فترة الحملة الفرنسية فكتب عن ذلك كتاب "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس" وجعله جزءا من مؤلفه الضخم" عجائب الآثار في التراجم و الأخبار "، والمؤرخ نقولا الترك الذي أرسله الأمير اللبناني بشير الثاني الشهابي (1789-1840م) لإعداد تقرير حول الحملة الفرنسية، فكتب كتابا يعرف الآن بعدة عناوين منها " ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية و البلاد الشامية ". وكذلك كان المغاربة يكتبون عندما يطلب منهم ذلك في حالات كهذه.

اشترك **أبو راس الناصري** و الضعيف الرباطي(1752-1818م) في كونهما اهتما بتسجيل تاريخ الحملة على مصر، وعلى أن هذا التاريخ هو شهر محرم من عام 1213هـ/1798م، و هو نفس التاريخ الذي قدمه المؤرخ اللبناني نيقولا الترك (1763- 1828م) والمؤرخ المصري عبد الرحمان الجبرتي(1754-1825م)[2]، و اعتبرا الوجود الفرنسي في المنطقة كارثة كبرى حلت بالمسلمين، حيث احتلت أراضيهم وأزهقت أرواحهم من طرف أعدائهم الفرنسيين النصارى الكفار. و ما أورده الضعيف الرباطي[3] لا يعدو أن يكون عبارة عن أخبار جد موجزة متدرجة في زمنية جافة، بالمقارنة مع ما

أورده معاصره **أبو راس الناصري**[4]، الذي و إن كان لم يتناول الموضوع بكل تفاصيله و لكنه قدم لنا ما يمكن اعتباره موقفاً متكاملاً يعكس ثقافة معينة و ظروفاً إقليمية متميزة.

لقد استطاع العلامة **أبو راس الناصري**(1737-1823م)[5] وهو الذي زار مصر بمناسبة الحج مرتين بينهما مدة تزيد عن عشرين سنة ، قبل الحملة وبعدها، أي في عامي 1790و1812م، أن يخرج من دائرة الخبر الزمكاني الضيقة، إلى دائرة القضية التاريخية الواسعة، حيث نجده في كتاب "**الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية** "[6] يحاول تقديم أسباب دخول بونابرت إلى الشرق العربي، وطريقة الدخول وما سبقها من أحداث ، ثم الموقف الرسمي للمماليك ومقاومتهم الفاشلة للفرنسيين، وكيف أنه عندما توغل نابليون إلى الداخل انتهج سياسة التصفية الجسدية للمماليك "الغز" وأتباعهم، وشملت هذه التصفية المغاربة وأهل الحجاز الذين انتظموا في مقاومة الجيش الفرنسي.

وتأسف **أبو راس** كثيرا وبلفظ الاسترجاع "إنا لله وإنا إليه راجعون "، عندما علم بأن الجامع الأزهر و علمائه قد امتدت إليهم يد الفرنسيين بسوء ، و لم تسلم حتى كتب العلم والشريعة من التخريب . كما أنه أشار إلى الظروف الصعبة التي مرت بها المرأة المصرية، وطبيعة النظام المالي الجديد الذي اعتمد على مصادرة الأموال وفرض الضرائب ، وكذا العملة الجديدة التي أُرغم الناس على قبولها مثلما جاء عنده في "فتح الإله....." عندما كان بصدد

الحديث عن شيخه عبد الله الشرقاوي إذا قال: « ولما دخل الكفرة مصر وألزموا المسلمين المحبوب[7] وبطاقة ...»[8].

تتبع الحافظ **أبو راس** حركة الحملة واتجاهها بدقة، وواصل حديثه في "الحلل السندسية ..."عن انتشارها الأفقي وتوسعها في مدن الشام ، وأشار إلى المقاومة العنيفة التي واجهتها بقيادة أحمد باشا الجزار بمساعدة الإنجليز وأسطولهم في البحر المتوسط برئاسة سيدني سميث ، والذين ضيقوا على بونابرت في الشام وفي مصر وأخذوا منه مالطا. ولم يتردد في وصف هزيمة نابليون في عكا في ربيع 1799م وصف الانتقام والثأر «و أخرجوا منها قسراً، و ولوا الأدبار قهراً، ثم أقلع عنها و رجع خائباً إلى مصر...و قد نجا من الشام منجى الذباب...». و لم يعترف **أبو راس** بهزيمة العثمانيين أمام نابليون في معركة أبي قير الثانية في صيف 1799م، بل اعتبر هذه الحقيقة التاريخية محل شك «...فكانت بينهما حروب سجال، و ربما كان ظهوره أكثر». و بعد ذلك مباشرة تحدث عن الحصار الذي ضربه العثمانيون و الإنكليز على الجنرال كليبر (Kléber 1753-1800م)، خليفة نابليون في مصر بعدما غادرها، والذي انتهى بالمفاوضات و انسحاب الفرنسيين بموجب اتفاقية العريش في جانفي 1800م التي تقضي بالجلاء و عودة مصر إلى حكم العثمانيين، و هو ما تم سنة 1802م.

اهتم الشيخ **أبو راس الناصري** الحكام المسلمين آنذاك عامة بالاستمتاع بالدنيا، وبالتقاعس عن فريضة الجهاد، و حمّلهم كل المسؤولية عن سقوط بعض الأجزاء من العالم الإسلامي في يد الاستعمار. و ما حدث بمصر يمكن

أن يحدث في أي مكان من المغرب أو المشرق الإسلاميين و لذا يجب الحذر. حيث قال :

مالت ملوكنا لحضيض راحتهـــم و أكلـــونا كأكـــل الداجن العلـــس

و أعرضوا عن جهاد الكفر قاطبة حتى ارتمت (مصر) نا العظمى بمرمس

و وصف المماليك في مصر بأقبح الأوصاف « فانهزموا بعد ساعة، وقد حل بهم القتل الذريع... و فر الباشا مراد و أهل دولته...وتركوا حريمهم في أيدي الكفرة...»

وما يثير الانتباه عند **أبي راس** في الفقرة الأولى و في فقرة أخرى من النص الوارد في الحلل السندسية " هو حديثه عن جزيرة مالطا «...بعدما أخذوا مالطا من يد الترايلية[9]...» « وفي خلال ذلك أخذ الإنكليز من يده مالطا عنوة، و هاهي بيده إلى الآن». فهل نفسر ذلك بأن جزيرة مالطا كانت في طريق حملة بونابرت عندما غادر هذا الأخير ميناء طولون الفرنسي في ماي 1798م، فاستولى عليها في شهر جوان ثم توجه إلى الإسكندرية فأخضعها في غرة شهر جويلية، و بالتالي هذا الحدث هو جزء من تاريخ الحملة ؟! أم أن هذا دليل قاطع على أن **أبا راس** اعتمد في معلوماته على مصادر مكتوبة قد توسعت في الموضوع و تناولته بكل تفاصيله، و تبقى هذه المصادر مجهولة إلى حد الآن لأنه لم يشر إليها، أو مصادر شفوية مؤكدة وعليمة، حيث أشاد **أبو راس** بشيوخه ومنهم عبد الله الشرقاوي (1737-1812م) شيخ الأزهر في عام 1794م ورئيس الديوان الذي شكله نابليون في البلاد، و الذي قال عنه في " فتح الإله..." ما يلي: «...كان يدافع عنهم

على قدر الجهد و الطاقة، و لم يأل نصحاً، و لم يطو –دونهم– كشحاً، بل سعى سعي الكرام، إلى أن فرج الله بعد ثلاثة من الأعوام...و قد اشتهرت مدافعته عن المسلمين و مصالحته، فله في ذلك العجب العجاب، فكان للمسلمين الجناب، و كف كثيراً من النصارى بإيجاز كلام وإطناب...»[10].

يُرجح الافتراض الثاني على الأول في نظرنا، لأن **أبا راس** كان يلخص الأحداث التي جرت و اقتصر على الأهم منها فقط، و لا تظهر أية قيمة في النص لما ذكره عن مالطا، بل ما ذُكر عنها جاء في السياق عبارة عن جمل اعتراضيه ليس إلاّ، مرتبطة بأحداث النص زمنياً فقط مثلما ارتبطت بها أحداث أخرى في فرنسا و أوربا و لم يأت على ذكرها **أبو راس**. و ما يؤكد هذا الترجيح هو دقة المعلومات الواردة في النص و المتفقة مع ما جاء عند مؤرخي الحملة والمعاصرين لها من العرب كعبد الرحمن الجبرتي[11] مثلاً.

لقد رفض **أبو راس الناصري** الوجود الفرنسي في مصر بقيادة بونابرت جملة وتفصيلا، فاعتبر الفرنسيين كفاراً « و لما دخل الكفرة مصر...»[12]. وقائدهم نابليون " طاغية " و " عدو الله " كما جاء في "الحلل السندسية..." اعتمد على خطة عسكرية قائمة على القتل و هتك الأعراض، و مطاردة المعارضة و تصفيتها، و اللجوء إلى العملاء و الخونة، ليتسنى له بعد ذلك التقدم نحو الداخل بكل من سهولة « فقتلوا من وجدوا بها... و استباحوا ديارهم... وقتلوا كل من توجهت عليه الظنة...و قتلوا كل من أثار فتنة أو توهموا فيه استنكافا... فقتلوا كل من وجدوه... فقتلوهم كلهم إلا من تخفى».

أما سياسة نابليون الاجتماعية و المالية في الشرق العربي، في نظر **أبي راس**، فهي سياسة التهديد و التخويف بالقتل « ففر منه أهل يافا و صيدا وغيرهما... و ارتجت الشام منه، وخافه أهل دمشق و غيرهم... حتى أن أهل القدس... هموا بالانجلاء عن ديارهم وأوطانهم...»، و المساس بالرموز والمقدسات و إهانتها « و دخلوا جامعها الأعظم فأهين أشد الإهانة، وشتتوا خزائن الكتب التي به و داسوها بالأرجل و حوافر الخيل...». و وصف سياسة كليبر بقوله:« فسلك نهجه في ذل المسلمين...». ثم كان يؤكد من حين لآخر على أسلوب مصادرة أموال المواطنين، بسبب و بغير سبب، بطريقة أو بأخرى « و نهبوا بعض علمائها لاتهامهم بودائع الغز و مظاهرتهم، و أخذوا أموالاً كثيرة من نساء الغز، فضلاً عن النهب، و أثقلوا أهل مصر بالضرائب الكثيرة... و دخلهما [يافا و صيدا] الجند و نهب ما وجد وعاث و أفسد... راضياً [نابليون] من الغنيمة بالإياب... ثم إنه حمل قناطير مقنطرة من المال حتى كاد أن يفرغ منه مصر... ثم وقعت المراوضة[13]... وينصرف لبلاده[14] ففعل على أن يأخذ ما بيده...».

و لم يفوت **أبو راس** الفرصة ليتحدث عن أخلاق الفرنسيين، فهم عنده مخادعون متنكرون « و موهوا بالعدل، مكيدة، كي يحبهم الناس... و صار [كليبر] يموه على المسلمين...» و يميلون إلى الفجور و الفسق و الدعارة « و لولاهم [الإنكليز] لامتلأ إقليم الفرانسة بالسبي من مصر، فكان ذلك من لطف الله بهم... و ما من امرأة لا زوج لها من المومسات رضيتهم ذهبت معهم، فطهر الله مصر منهم.».

لقد ذكر أبو راس لفظ "الإنكليز" خمس مرات في نص الجملة الوارد في "الحلل السندسية..."، دون أن يجيب عن سؤال وجيه يطرح نفسه ! هو : لماذا تدخل الإنكليز في هذه القضية ؟ ! و هو الذي كان يعتبر الإنكليز هم أيضاً " نصارى و كفارا ". فهل كان يخفى عليه يا ترى أن منطقة الشرق العربي بالنسبة لنابليون ما هي إلا جزءا واحدا من أجزاء كثيرة تركب بمجموعها مشروع بونابرت الضخم، و المنبعث من رحم الثورة الفرنسية الكبرى وتجلياتها، الذي ترفضه الأنظمة الملكية الأوربية في روسيا و النمسا وإسبانيا و بريطانيا؟!.

إن محتوى النص لا يتضمن هذه المعاني، ولا يمكن أن يرتقي إلى هذا المستوى من الوضوح والوعي. فمشروع بونابرت في **نظر أبي راس** هو مشروع صليبي استعماري استيطاني متجدد، وهؤلاء الفرنسيون في مصر هم كأولئك الإسبان الذين احتلوا وهران أكثر من قرنين من الزمن وطُردوا منها سنة 1792م ، أو كأولئك الفرنسيون الذين هاجموا مدينة الجزائر في عهد لويس الرابع عشر عامي 1682، 1683م أو حتى قبله، وفشلوا في ذلك. وبنفس العبارات تقريباً التي وصفهم بها في مصر يصفهم بها أيضاً في الجزائر التي غزوها، مثلما جاء ذلك في " عجائب الأسفار..." : « و غزاها الفرنسيس سنة ثلاث و تسعين و ألف... فهدموا أكثر دورها وبعض مساجدها... و رجع الكفرة بلا نايل و لم يحصلوا منها عل طايل... ثم غزاها الفرانسيس في العام الذي بعده...ورجع أعداء الله مسرورين...»[15].

لم يكن **أبو راس الناصري** موضوعيا في تقديمه للحملة الفرنسية كالجبرتي، الذي لم يخف إعجابه بحرص الفرنسيين على النظافة و الصحة، وبتفوقهم في العلم والصناعة،[16]، وتخلص من النظرة الدينية الضيقة و المغلوطة التي لا تسلم بصواب التدابير و الإجراءات التي يضعها غير المسلمين، و هو الأمر الذي جعل هؤلاء المسلمين يغطون في نوم عميق لفترة طويلة، وانشغل علماؤهم بمسائل ثانوية و أحياناً تافهة، لا تسمن ولا تغني من جوع، تصنع الخمول والتقوقع و لا تقبل الإبداع و التفتح.

و لم يتسامح **أبو راس** مع الفرنسيين، و مثل نموذج الفقيه العدائي الصدامي الذي ينقسم فكره إلى كليات و عوالم منفصلة عن بعضها البعض، يؤمن بالحقائق المطلقة أكثر من الحقائق النسبية القابلة للمناقشة. و لا يمكن أن نشك بأنه لم يطلع على الوجه الآخر للحملة، و هو الذي لمّح لأفكار الثورة الفرنسية التي انتقلت إلى مصر عن طريق العسكريين المتشبعين بها والمؤمنين بضرورتها، مثل الإخاء والمساواة و الحرية و وصفها بالمراوغة و التحايل وضرب على ذلك مثالاً « و موهوا بالعدل، مكيدة كي يحبهم الناس، حتى أن رجلاً بيده إناء مملوء حلياً فأخذه جندي منهم فلما سمع صاري عسكر[17] وزير بونابرت أعطى للرجل في ذلك محبوباً ذهباً. »

إن رأي **أبي راس** في مشروع بونابرت و أفكار الثورة الفرنسية، هو جزء من رأي عام تشكل وقتئذ في العالم الإسلامي[18] ، غير أنه هو أيضاً الرأي الذي تبناه كثير من العلماء والفقهاء في المغرب العربي، و الذين زارهم

أبو راس واحتك بهم، و أثر فيهم، وأقنعهم واشتهر عندهم، و تأثر أيضاً بهم، و كان قد تولى القضاء و الإفتاء بمعسكر، وسافر إلى دول المشرق العربي، وحج وناقش علماء الأزهر، و لم يقبل بالتوظيف عند السلطان مولاي سليمان المغربي. حتى قال عنه تلميذه ابن سنوسي بأنه متقن « لجميع العلوم، عارف بالمذاهب الأربعة لا يسأل عن مسألة إلا و يجيب عنها بداهة كأنها حاضرة بين شفتيه...»[19]، و جاء عنه في :"دليل الحيران..." : « مات مجدد القرن الثالث عشر ذو التآليف العديدة، و التصانيف المديدة، الشريف الأمجد، العلامة الفرد ، الحافظ أبو راس... الذي ليس له نظير ولا مثيل...»[20].

هوامش

1- يعتبر غير المسلم من الطرف الآخر، أو من الغير. لتوسيع مفهوم هذا المصطلح و استيعابه راجع: سعيد بن سعيد العلوي، أوربا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1995م ص ص11-14

2- نقولا الترك، حملة بونابرت إلى الشرق " مخطوطة نقولا الترك". تحقيق أمل بشور، ط1 ، دار جروس برس، طرابلس لبنان، 1993م، ص76.

- عبد الرحمان الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار في التراجم و الأخبار، 3 ج، دار الفارس للطباعة والنشر، بيروت، دون تاريخ، ج2 ، ص180

3- محمد بن عبد السلام الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة العلوية السعيدة من نشأتها إلى أواخر عهد مولاي سليمان،جزآن، تحقيق محمد البوزيدي الشيخي، ط1، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء، 1988م، ج2 ،ص ص،560،561،574،598،637.

4- تم إنجاز هذه الدراسة من النص الوارد في النسخة المخطوطة لـــ: " الحلل السندسية ..." والموجودة بالمكتبة الوطنية بباريس ، ويختلف هذا النص في بعض جمله عن النص الوارد في النسخة المحققة من طرف الأستاذة سليمة بنعمر .

5- و هو محمد أبو راس الناصري المعسكري، (1737-1823م)، تعلم بالجزائر و المغرب، اشتغل بالتعليم وتولى القضاء، اشتهر بسعة اطلاعه و كثرة تآليفه، اعتبره الزياني مجدد القرن 13هـــ، انتقل إلى المشرق وإلى تونس و المغرب، اهتم بالتطورات التي عرفها العالم الإسلامي في فترة حياته، له تآليف عن أخبار ملوك الروم و ملوك فرنسا و هي في حكم المفقود، من أهم كتبه "عجائب الأسفار...".

6- محمد بن أحمد أبوراس الناصري الجزائري :

- الحلل السندسية في شأن وهران و الجزيرة الأندلسية، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس ، رقم 4619 , قسم المخطوطات الشرقية، ص ص 56 (ب)-57 (ب) .و انظر كذلك :

- الحلل السندسية في شأن وهران و الجزيرة الأندلسية أو (الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب)، تحقيق سليمة بنعمر، ط1، دار صنين للطباعة والنشر، ص ص 385-388 .

" الحلل السندسية ..." هو عنوان جديد لشرح القصيدة السينية التي عرفت باسم " نفيسة الجمان..."والتي وضعها أبو راس بمناسبة فتح وهران عام 1792م .

7- قطعة نقدية ذهبية .

8-محمد ابن أحمد الناصر أبوراس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية و العلمية"، تحقيق وتعليق محمد ابن عبد الكريم ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990م، ص 61.

9-هم فرسان مالطة .

10 فتح الإله...، مصدر سابق، ص 61.

11-انظر إلى المقارنة التي أجراها الأستاذ أبو القاسم سعد الله بين الجبرتي وأبي راس في: - ابي القاسم سعد الله ,أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ,جزآن , المؤسسة الوطنية للكتاب , الجزائر ,1986, ج2, ص ص299-307.

-المصدر نفسه، ط2, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1981 , ج1 , ص ص 83-103

12- فتح الإله...،مصدر سابق، ص 61.

13- المفاوضات .

14- يقصد الجنرال كليبر (KLEBER).

15- محمد بن أحمد بن عبد القادر أبو راس الناصري المعسكري ، عجائب الأسفار و لطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية ، رقم 1632 , ص75 (أ).

16-الجبرتي: المصدر السابق، ص 211، ص ص233-236.

17-هو قائد الجيش.

18- لمزيد من الإطلاع عن هذا الموضوع، راجع كتاب :

ودان بوغوفالة، الثورة الفرنسية في الإسطوغرافيا المغاربية، دراسة تاريخية تحليلية في نماذج من كتابات القرن 13هـ/19م ، ط1، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، سيدي بلعباس، 2004 ، 255ص .

19- سعد الله: المصدر السابق، ج1 , ص 93.

20- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم و تعليق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص 240.